الوجودية .. لماذا ؟

بقلم : محيي الدين محمد

بحث الشهر الفلسفي

يقف الانسان الغربي مواجها لهذه القضايا الثلاث : المسيحية . المادية . الوجودية ، والتي تنبئه بأن عليها تبعة اختيارها لمستقبله ، فيما اذا دهمه السقوط ، واختار لها ان توجه حياته ..

وقد حاولنا من خلال عرضنا لنظريات المعرفة والتاريخ والاخلاق في هذه القضايا ، ان ندلل بمحاولاتها جميعا في تفسير الكون والزمان والتطور تفسيرا مذهبيا ..

بيد ان نظرية وحيدة (ولا اسميها نظرية الا لوقوعها في السياق) لا تدعى انها تفسر التاريخ والمستقبل ، قد كشف عنها القرن العشرون..

وقد استطاعت هذه النظرية اللامثالية ان تعرى الانسان من كافة شعاراته السابقة ، وان تستكتبه وعدا جديدا : الانسان حرية ..

غير ان المسيحية حاولت من قبل ، الفوز بهذا الكائن عن طريق الحب ..! وتحاول المادية الحديثة اكتسابه عن طريق العدالة ... وهذا يثبت على الاقل حاجة الانسان الراهن للقيم ..

اما نحن .. في الشرق ، فمن هو انساننا ؟!.

أيصبح الشرف ميزته الوحيدة ، بينما يطالب فلاحوه وعماله في الحاح مثل بتطبيق العدالة والحرية ؟؟!!..

هل هي مثالية جديدة ؟!

مقدمة :

لما كانت (التومائية) تذهب الى أسبقية الوجود على الماهية ، فقد ذكر بعض نقاد المذهب الوجودي ، وعلى رأسهم اوجست كورنو ، وكانابا ، وجارودي ، ولوكاس .. الى انه في النهاية ، ليس الا طبعة جديدة (للنيوتومائية) . بيد ان شريحة واحدة تقتطع عن التومائية الحديثة ، ولتكن نظرتها الى الانسان ، لتدل بشكل قاطع على اختلاف حاسم في وجهات النظر بين منطق القديس توما الاكويني، ومنطق الفلسفة الوجودية :

ان التأمل الداخلي يكشف في النهاية عن وجودين يختلفان في الدرجة: الوجود الذاتي للمتأمل ، ثم الوجود المتخطى للذات والكاشف للحقيقة الخالدة الالهية .. وان العملية التي هي (حواسية) بالدرجة الاولى ، والتي كونت ـ فيما بعد ـ معرفتنا وفلسفتنا تشجب هنا كيما يصبح التأمل الداخلي هو الحقيقة الاكيدة وكل ما سواها خداع بصري او فكري !!

ومن هنا يمكن ان نلاحظ مقدار الخطأ في تفكير التومائية والاوغسطينية ، وارتباطهما الكلي بالمثالية ، وهذه المظاهر التي تنبىء عن حصر داخلي ، وعن رؤية للعالم من داخل الشخصية ذاتها ، تساوى هذا المذهب الجديد: الشخصانية ، والذي هو تفسير للانسان ينطوي على هستيريا باطنية تدعى رؤية الكون كله من خلال انانية ساذجة منطوية كالوقعة على حقيقة محض ذاتية ...

ان (مونيه) الذي هو اشهر ممثلي هذه الفلسفة يحاول جاهدا ان يعطى للعالم كله درجة روحية تعود به وبفلسفته الى داخل نطاق المسيحية ، والى المثالية على العموم ...

من أزمنة .. من ازمنة بعيدة ، خلص الفكر البشري الى نتيجتين هامتين ترضيان اندفاعاته المذهبية ، وتبشران ـ في الوقت ذاته ـ بخلاصه من اسرهما الثقيل : المثالية والمادية ..

العالم مادي !! العالم ذهني !! العالم صورة، « العالم .. العالم » ...

وبسبب من ذلك التناحر والخلاف ، دُعيت حتى الخرافة الى ان تعلن ارتباطها بأحدهما .!! لان واحدا على الاقل ليس الا النتيجة النهائية لمسار المذاهب برمتها في التاريخ !..

وكان السذج يختارون : مادى؟ ! كلا .. أنا مثالي !!! وكان التاريخ يكرر ذاته ، ينطفي سعار أمبيذوقليس ، فيطفو غورغياس ، يموت هوبز ، فتفرج عن افكار أفلاطون ويظهر اخرون يكتبون مدنا جديدة فاضلة .. وكان لكل فلسفة منهما زمن تذيع فيه آراؤها وتنتشر .. ولم يكن هذا الزمان محددا الا لانه يعقب نكس الفلسفة الاولى التي انتهت أيامها .. فبعد هربرت سبنسر وهوبز وبيكون ، وماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين ، تخرج الردة في فلسفات الثلاث باءات (برجسون . بلوندل . برونشفيج) الذين يخططون للعالم حقيقته على التوالي : الحدس . الصلة في العمل . الابتكار .!!

اما في القرن العشرين ، فقد وجدت الروحية الجديدة لفزعها البالغ ، طغيانا هائلا وجارفا من الفلسفات المادية التي فسرت العالم وجعلته جاهزا، فلم تستطيع ان تمسك انفاسها قليلا كي تتبين موضع العطب، بل بعثت الى روح العصر افكار هوسرل ليمتد قليلا رد الفعل الروحي ازاء تشدد الافكار المادية ...

ولكن .. ما الذي حدث .!!

ان حضارة القرن العشرين تجيب على ذلك بمظاهرها المتعددة ، فقد رفضت الحلول الروحية المثالية ، واصبحت تنفر من دعوات التصوف والنرفانا والموت من اجل المسيح وموسى ومحمد ..

ان القرن العشرين يفضي الى روح القرون المستقبلة ، ويعلن بألا جدوى في الحلم ، او الطاعة .. ان ميزته وحده ، في انه يساوي ميزات القرون التي مرت جميعها ، لانه يعلم ان اكتشافاتها جميعا شيء ، واكتشافه هو شيء آخر !!..

فالقرون التسعة عشرة كانت تعرف الفرد بصفاته ، فهو يهودي او مسلم او كونفوشيوسي او كافر .. اذ انه تابع ابدا لما يدين به ، انه لا يعرى ابدا من هذا اللباس الذي اصطلحت كل تلك القرون على ان يكون ميزة هامة من ميزات اي كائن .. والى مطلع هذا القرن ، كان الافراد يمثلون طاعة سفلى ، للماديين أحيانا ، وللروحيين أحيانا اخرى .. اما الان ، فقد اكتشف هذا القرن العظيم كائنا عجيبا ، يمثل عريه الفاحش كل عظمته ، وكل عظمته في انه يرفض الانصياع مدللا : الانسان حرية ..

كانت الفلسفة في القديم تفضي اما الى الاخلاق المحضة ، واما الى الميتافيزيقا اما الان ، فان الفلسفة تعتبر نفسها ممرا الى الحرية الانسانية ، لفرط ما عذب الفلاسفة القدامى ، بشرهم من ادعاء وجود كلي للروح الازلية ، وخلود مطلق للنفس الانسانية ..

اننا ـ لمجرد اختصار المسافة ـ سنحاول ان نطلق هذه الاسماء على مسمياتها في الفلسفات الراهنة والتي تحاكم هنا ـ فوق هذه الصفحات ـ لاختيار افضلها ...

ان الفلسفة المادية تمسك اليها العالم من خلال الامتداد ، الحركة والامتداد .. فهي مكانية بحتة ، اما الروحية فهي تطفو بالعالم الى الفكرة، الفكرة والمثال .. فهي هيولية بحتة .. غير ان الانسان ليس اما مكانيا واما هيوليا .. انه اشتراك هذين معا .. انه في الطين وفي السماء .. غير انه قبل كل شيء : في زمان .. يصنع ذاته في زمان ...

ولذلك فالفلسفة الجديدة ، فلسفة القرن العشرين ، التي اكتشفت الانسان الحرية ، تجد ان الفلسفتين الروحية والمادية قد نسيتا الانسان الجديد .. : الزماني !.. واصبح لهذا واجبا على هذا القرن المشرق تعريف النبي اجديد ..

لقد انقسم الغرب على نفسه عندما جزأ قلق الانسان المعاصر الى قلقين : العدالة والحرية ، كما تنقسم فضيلة العالم الراهن الى فضيلتين: الروح ، والمادة .. غير ان العدالة والحرية يتآلفان في النداء الاسيان البشر الراهنين ، فهل يمكن للمادة والروح ان يرتبطا في جواب ؟!..

ما كانت الفلسفة المكانية ، والهيولية لتهتما بالانسان ، فقد انتشتا بفكرة النظام . النظام الذي تسنده فكرة المطلق : الطبيعي هنا ، والروحي هناك .. ! ولذلك كان الفرد في ايهما طائعا ، للكلمة ، للحكم ، للامر .. وما كانت تسنح له فرصة للفرار ، فقد كان العالم عالمين : ديني ، وكافر .. وكان احيانا يفر من احدهما ليسقط نهائيا في شراك الاخر .. ومن اجل هذا قنع كل فرد يولد داخل نظام ما ، بمكانته وامله وطبيعته ..

الفلسفة المكانية تعرى عالم المادة ، وتمنحه معنى ، أليس الذهن ـ بكامل روائه ـ صورة مرآوية عن حركة المادة !.. والفلسفة الهيولية تدعي العكس اليست المادة من خلق الذهن الاول !

غير ان هذا الانسان الذي ظل قرونا عديدة ، يلتفت لهذه الناحية ، ثم الي الناحية الاخرى (كالناظر الى مباراة في التنس) قد أخذه الهم اخيرا فحاول ان يفهم في البداية معنى ان يكون انسانا !!.

وقد اجابت على هذا السؤال التقليدي فلسفة القرن العشرين (الزمانية) فحاولت في البدء ان تمزق عنه اردیته الملونة التي احتفظ بها منذ اخناقون وموسى !!..

هوذا الميلاد الجديد الذي تذكره القرون المقبلة فخرا للقرن العشرين !.

هوذا الميلاد الجديد الذي تذكره القرون المقبلة فخرا للقرن العشرين : الحرية ...

وان هذه القيمة التي تبدو ، ولا جدوى لها ، تثبت اهميتها في كل دور اختياري.. وتؤكد ببسالة ، ان اكتسابها هو اكتساب القضاء ، وما الانسان ان لم يكن قدره بالذات ؟!!

العدالة والحرية .. قلقا الانسان منذ القديم .. بيد ان الحرية بالذات ، هي قلق انسان القرن العشرين ..

النظرية المثالية في المعرفة

« ان العالم هو فكرتي عنه » (١) .. اذا نبذنا جزئيات فخته وشلنج وهيجل ، فان هذه الجملة الدقيقة تعتبر منفذا للنظرية المثالية جميعها ، وتعبيرا مقتضبا عن التصور المثالي للطبيعة ..

هناك عالمان شطرهما (كانت) شطرين ، أحدهما (الشيء في ذاته) والاخر (العقل) ، خالقا ما سمى في التاريخ الثقافي باسم التناقض المثالي والشيء في ذاته هو عماء المادة الشامل ، هو جوهر كل ما هو ساكن في ذاته ، هو تحجر الازلي في بلادة صوان او صخر ..

اما العقل فهو النمنمة الحية التي وهبت التمييز والادراك ، هو الذبذبة التي تعي وتفصل وتفهم .. ولذلك كان مستحيلا عند (كانت) أن ينشأ أحدهما الحي ، عن الاخر الميت ، كان مستحيلا ان ينشأ العقل الكلي (٢) عن مجرد اصطدامات المادة التي هي بدون وعي : المادة الميتة .. والتي تشكل منتهى التطور من اللا عضوي الى العضوي عندما تنقلب الى مجرد حركة آلية في صورة انتقالات ميكانيكية عضوية خلال النمو الباهر لنبات او شجرة ..

اما المعرفة عند (كانت) فهي (تأثير اللاذات في الذات) حصيلة مرور المجسات الفضولية للحواس في العالم .. منشئة ما هو خبرة للعقل الذي يبعث رسله الى الخارج لاكتشافه .. ان الحواس هي الواسطة للتعرف بالاشياء ، فهي بكل ثقلها الجامد ، ليس لها وجود مستقل عنا ، وكل معرفتنا هي من (خلق الذات وانتاجها) (٣)

لاحظ هذا التمزق العنيف في فكر (كانت) مفكر مثالي اخر هو (فخته) فحاول ان ينشيء نوعا من الرابطة بين العقل والعالم في صورة (العلاقة) بين الوعي والمادة « فالاشياء في ذاتها ليست كذلك ، انها اشياء لنا ومن اجلنا،وان العقل يبني عالمه الخاص، فليس العالم الخارجي الميت الا عدما ، فالكون اذن ، ليس الا ما تكونه الذات لنفسها » (٤) ان العالم يبدأ من الذات التي تخلق العالم الموضوعي الذي يعود فيصبح مؤثرا في الذات نفسها(٤)، وقد حاول ان يقوم من هذا التناقض بان ينشيء اخلاقية

---

(١) كارادة وفكرة ـ شوبنهور

(٢) ضروري ان ننبه الى ان النظرية المثالية تتخطى (العقل الانساني النسبي) لتمسك اليها العقل الكلي المطلق

(٣) « قصة الفلسفة الحديثة » لزكي نجيب محمود ص ٣٢٨

(٤) The Spirit of Modern Philosophy, Royce P. 152

(٥) ليكون وسيلة لها تستعين بها على تقرير نفسها والشعور بوجودها ص ٣٣ نفس المصدر

حديدية « انه نسميك بالغ السمك ، هو هذا الجدار الذي تختفي خلفه الحواس ، الصانعة لمعرفتنا الضئيلة ، مما يدفعنا الى التمسك بتلك القيمة الوحيدة التي بقيت لنا : الاخلاق » (٦)

ليس غريبا ان تصل فلسفة (فختة) من خلال نظريته في الاخلاق الى الاعتماد الكلي على المسيحية ، بصفتها الدين الاخلاقي الذي يضع الواجب في مكانه الصحيح ، وليس غريبا ان تنتهي كل مثالية الى المطلق، فما دام حقيقيا ان الذات تخلق موضوعية العالم الذي هو حقير ونسبي، فلماذا لا تنطلق هي من الجزئي الى الكامل ، من هذا العالم الثقيل الجاف الى عالم اكثر روحي ، لا مادي ، أزرق ؟!

ان (فختة) ينتهي الى التصوف ، كما ينتهي كل مثالي ، ومن خلال اسسه الثلاث لبرنامجه ، يمكننا ان نطالع عرى المثالية على العموم :

أ ـ كل صور الفلسفة لها منبع واحد حقيقي ، هو ان تدل الافراد الى حريتهم ، وبالتالي الى ان يخلقوا لانفسهم عالمهم المنظم الكامل ...

ب ـ ونتيجة لذلك كان القانون الاخلاقي سابقا على كل معرفة ووضعية مقننة ...

ج ـ ان العالم الخارجي العياني الميت هو ببساطة (المادة المتكثفة من اجل استعمالنا والمتضحة لحواسنا)(٧) ...

وان امامي عالما غريبا كمسرح لنشاطي ، وليس وجودي الا من اجل هزيمة ذلك العالم وارغامه ، انه لواجب ان امتلكه ، وان أعلن حيازتي له (٨) ...

(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٤٣

(٧و٨) ص ١٥٧ ـ ١٥٨ المصدر السابق

ثم كان النموذج التالي ، مسيحيا ، بنفس الملامح ، والخطوط الصارمة المؤدية الى مطلق الصليب ..

حاول (شلنج) ان يعيد خلق العالم بالطباق الناشيء عن الطبيعة العضوية ، والطبيعة اللاعضوية ، بين العقل والمادة .. بين الطبيعة والتاريخ .. « ان العالم القديم بما كان يسود فيه من ديانات طبيعية ، يمثل الجانب الذي ترجح فيه كفة الطبيعة بينما ديانة العالم الحديث هي المسيحية ، التي ترجح فيها النزعة المثالية التفكيرية .. »

ان (شلنج) ينتهي الى تناقض نسبي جدا بين المادة والعقل ، بدأ في زمن يلي (الدفعة الاولى) (٩) مباشرة ، ويظل في توتر دائم بين قطبيها المتناقرين ، فهو يجمع مواده بواسطة الحواس من العالم ، ثم يبعث حلوله ومستنبطاته الى العالم بواسطة العقل ، وتظل هذه الصورة امينة لشكلها الاول حتى ننتقل منها الى فكرة التاريخ عند (شلنج) ! اجتاز التاريخ مراحل ثلاثا : مرحلة الطبيعة التي وصلت الى عنفوانها في الشعر الاغريقي والدين الاغريقي، ثم مرحلة الركون الى القدر ، التي جاءت في نهاية العالم القديم ، ثم مرحلة الحكمة الالهية التي بدأت بالمسيحية ، اذ أصبح الله موضوعيا لاول مرة في التاريخ بان تمثل في المسيح !.

(٩) يجب الا ننسى أثر هذه (الدفعة الاولى) في كافة الفلسفات المثالية انها تزعم بان العالم هو كالجهاز الميكانيكي ، لا يبدأ عمله الا بادارة ذراع معينة تمنح الجهاز قدرة ابدية يظل خاضعا لميكانيكيتها حتى يشاء العقل الذي ادارها ان يوقفها .... فبدون (دفعة اولى) تسقط المثالية في استحالة لا قيامة بعدها ..

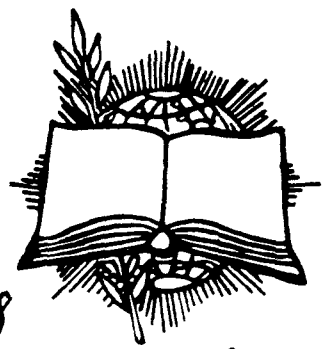

معرض الكتاب
طرابلس ليبيا
من ١٥ الى ٣٠ نوفمبر ١٩٥٨
تحت رعاية سمو والي ولاية طرابلس الغرب

Book Exhibition
Tripoli Libya
15/30 Nov. 1958
Under the Patronage of H.E. The Gov.

يسر مكتبة الشرق في طرابلس الغرب بليبيا ان تعلن بانها ستقيم معرضا للكتاب في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) القادم يضم مجموعة مختلفة من الكتب العربية والاجنبية .

الغاية من المعرض

١) التعريف بالكتاب العربي والغربي ونشره في شمال افريقيا
٢) اطلاع الشعب الليبي على آثار الشرق والغرب الثقافية.
٣) العمل على تنمية العلاقات التجارية بين دور النشر في البلدان المختلفة وليبيا .

شروط الاشتراك

١) يحق لجميع دور النشر والتوزيع والمكتبات والمطابع ودور الصحف والمجلات والمؤلفين الاشتراك بالمعرض
٢) على كل مشترك ارسال نسختين من كل كتاب يرغب في عرضه
٣) ترسل الكتب والمجلات على نفقة المشترك .
٤) آخر موعد لاستلام الكتب بطرابلس يوم ١٠ ـ ١١ ـ ٥٨
٥) تعنون الرسائل والطرود بالعنوان التالي :

على رجب الغرياني ـ معرض الكتاب ص.ب. ٢٥٥
طرابلس الغرب ـ ليبيا

ان ارادة البشر هي ارادة الله المطلقة التي تجسدت في صورة المسيح (البشر الالهي) كي تتحد الانسانية بالله . كي يصبح الله درعا للارادة البشرية ، وتبنى على هذا الحساب اخلاق جديدة عمادها الارشاد وافتراض الخير البشري .. ولم تستطع فلسفة (شلنج) الاعتماد على ارادة الانسان، لان كل مثالية تنبيء . عند التجربة ـ عن ضرورة اعتمادها على ما هو فوق بشرى « ان العالم الخارجي ليس الا فكرة الله تجسدت لاعيننا، وليس العالم الداخلي الا فكرة الله الواعية لذاتها ...» لقد قدم المسيح ليرفع عن الارض ضعف الانسان ، ويستبدله بطاقاته هو الالهية كيما يعتمد البشر على واسطته ، اذ يصبح هذا النبي الاله جسرا يوصل الى الخلود .. فبدون (مسيح) ، وبدون تصوف ، وبدون الاعتماد على (اله) يظهر زيف المثالية وتخبطها ..

ان المعرفة عند (شلنج) هي نفسها عند (فخته) وهي ذاتها عند (هيجل) بيد انه يعترض على (منهاجيهما) فحسب .. ان اولهما موضوعيّ بحت ـ في مثاليته ـ والاخر ذاتي بحت .. وكان لا مفر من الربط بين الفلسفتين بنظرة تعلو بكلتيهما مقيمة ديالكتيكا موفقا .. مزاوجة تربط بين عنف الموضوعي وحده ، والذاتي وحده .. ولكن (هيجل) ، كيما يفسر الوجود الثقيل للمادة ، وقع في نفس افتراض (فخته) .. اذ تصور ان الحقيقة هي الفكر المطلق ، وان لا شيء سوى الفكر هو في صلب الحقيقة ...

انه يبدأ بأن يعي ذاته المفردة، بدون حضور في العالم ، او اكتشاف لما يعارض الذات .. ثم ينتقل الى مجال يجد فيه ما يعارضه ، ثم ينتقل بعد ذلك الى الوحدة التي تجمع بينه وبين اضداده ، ملقية بهم الى المطلق الذي يتألف من كل الجزئيات التي تجمعها حقيقة واحدة شاملة (١٠) ان العقل عند (هيجل) هو فعالية المسبب الغائي ، ما دام كل فعل وحادثة قابلة لان تفسر بالعقل الذي يرد لها اسبابها النسبية ، والذي يستطيع ان يفسرها تماما .. ولذلك فعماء المادة المطلق لا وجود له ، اذ ان الفكر هو المطلق الوحيد الذي هو خارج المادة والزمان (١١)

ان المثالية في كافة صورها تدرك العالم بالذهن ، فكأن الاحساس والفكر هما اللذان يوجدان الاشياء والاخرين .. ان ذهنك الان لا بد خال بصورة ما عن (برج بيزا) ، ولكن .. وفي اللحظة التي اذكرك به فيها ، يقفز البرج بكامل (وجوده..) الى تمثلك الذهني فيصبح موجودا ، برغم وجوده المادي القاطع خارج وعيك ..

.. وهنك وعى في حالة عماء شاملة ، وعالم في حالة عماء شامل ، والصلة بين العالمين هي الحواس. حواس الانسان التي تكون في حالة انفتاح نحو الاشياء ان الحواس تمد يدها الصديقة نحو العالم وتعمل على ان يمتلىء الوعي بمعاني الظواهر .. فالعالم اذن هو العلاقة بينهما ، وليست الاصطفاء الذاتي ، والابتعاد بها عن الواقع ، ما دام وجودنا هو انشاء مستمر لحالة هي ارتباط بين الوعي وبين الخارج .. ان الظاهرة ليست في وجود مطلق ، وليست الذات كذلك ، اذ من العلاقة بين الوعي والظاهرة ينشأ احساسنا بالعالم وفكرتنا عنه ..

لم تكن المثالية في اصرارها باسبقية العقل ، الا هادفة لاثبات وجود الله، فما دامت الطبيعة الصماء هي المنشئة للعقل في الكون (كما يقول الماديون) فان فرضية وجود الله تصبح مستحيلة !. فالاشياء موجودة ـ خلال الوجود الذهني ـ مؤكدة الوجود المطلق للذهن الكوني الذي هو أصل كل وجود ...

وفي النهاية يصبح غير عسير علينا ان نحيط الفلسفة المثالية بأسرها، في اطار شامل ، ثم ختمها بهذا الخاتم اليسير : الفلسفة الذاتية الفردية!.

***

النظرية المادية في المعرفة

« ان هناك واقعا مستقلا عن احاسيسنا وفكرنا » (١٢)خارج وعينا ، وخارج ادراكنا .. واقعا ثقيلا . كثيفا ملموسا . رصاصيا .. هو هذا القلم ، والمنزل الرمادي المقابل ، وهذا المعزف ... ان اصابعي التي

(١٠) « فهيجل هو من طائفة هؤلاء الفلاسفة الذين يقيمون مماثلة بين (الفكر) و (الوجود) بيد انه وان سمى مثاليا ـ بالمعنى الميتافيزيقي ـ كل من ادعى هذا الادعاء .. الا ان لكل مثالي وجهة نظر خاصة ، ولهيجل ايضا وجهة نظره . ان اغلب المثاليين هم منافسون (لبركلي) Berkley فالفكر هو وحده ذو حقيقة بالنسبة لهؤلاء ، اما مجموعة الاشياء المادية التي تنتشر في الفضاء وتنتظم في الزمان فانها ليست سوى تبد ذاتي ، وهذه المجموعة لا وجود لها الا في ما يكونه الفكر عنها من تصور ، ولا قيام لها الا به ... » ص ٢٨ هيجل (اميل برييه ترجمة الدكتور احمد كوى)،

(١١) ان « هيجل » يتصور الحركة في الكون تراكبا تطوريا نحو الذات التي هي وعيها لذاتها ووعي كل ما هو موجود فيها ، وما هي به موجودة !. ونحن من جانبنا لا نستطيع ان نتصور موجودا يكون وجودا في ذاته + وجودا لذاته ، فاولهما خاصة الاشياء الساكنة ، والتي هي محالة ابدا الى وجود لذاته، كيما يكشف فيها سكونها الازلي .. وثانيها هو خاصة الشعور الانساني الذي يواجه صمت الاشياء خالقا لها معنى وقيمة.

(١٢) ما هي المادية (روجيه جارودي) ص ٨

قريبا

الثورية

في الفكر السياسي العربي

دراسة علمية سياسية لمفاهيم الثورة

والوسائل الثورية في التاريخ العربي

منذ القرن السابع حتى الآن .

بقلم الدكتور

حسن صعب

دار الآداب

تلمس هذا الخوان ، انما تقوم بسلسلة من الارجاع العصبية والعضوية تنفذ الى معرفتي مبينة ماهية هذا الشيء الملموس ، وحاسمة طبيعة معرفتي ، وهي هذه المادة في الخارج والتي هي سبب حاستي ، فمعرفتي..

وان كل هذه الاشكال المتعددة لتطورنا الفكري والديني ، هي بسبب من التقاء عناصر مجهولة ، بتأثير تعفن تخمري ، حدث بطريق رطوبة وحرارة ومادة وحركة ومصادفة .. فالعالم الذي هو كل هذا العماء الاولى ، والذي هو المكان ، سبب فريد لوجودنا ، ووجود فكرنا على هذه الصورة ..

فكما ان المثالية اعتقدت باسبقية الفكر على المادة ، وبصدور كل هذه الاشكال الهائلة الموجودة في الكون جميعه عن كلمة الله .. فان المادية تعتقد بان المعرفة والذكاء والاحاسيس والمشاعر ليست جميعا الا ارجاعا لحواسنا .. فالحواس الطبيعة للعالم ، تخلق المعرفة الطبيعة للحواس ، وبالتالي للعالم ...

وبذلك سقطت المادية في نفس الشرك الذي سقطت فيه المثالية ، فكما ان المثالية لا تستطيع الافصاح عن كيفية خلق العالم بطريق كلمة الله ، فان المادية تقف عاجزة عن تفسير كيفية وجود المادة ، هذا الوجود الغريب الذي هو بدون معنى .. وان هذا العجز البائن في هاتين الفلسفتين اللتين تؤمنان بامكان تفسير العالم ، ورده الى علة اولى واحدة ، وسبب ازلي فريد ، يردنا الى النتيجة النهائية لنظريات المعرفة على العموم .. وهو تخبطها الواضح ... وافتراضاتها البعيدة .. انها تردنا الى قضية سوفسطائية معذبة ، طالما تندرت بها الاذهان : ايهما وجد قبلا : البيضة ام الدجاجة ؟؟!

ان سبب تمسك المثالية بالعقل المطلق واسبقيته في الوجود ناشيء عن مجرد رغبتها في اثبات وجود الله ، فما دامت الطبيعة كافية نفسها بنفسها، فان فرضية وجود الله تصبح مستحيلة ، ولذلك فان سبب تمسك المادية باسبقية الوجود المادي ، هو رغبتها في رد كل تطور الى قانون خارجي تفرضه العلائق المادية المنفصلة عن الواقع البشري ..

ان المادة هي الواقع الاول الذي ليست احاسيسنا ، وليس فكرنا الا نتاجا له وانعكاسا عنه(١٣)... وقضية (الانعكاس) هذه ، سوف تصبح لب النظرية المادية في المعرفة ، « فالواقع الموضوعي ينعكس في وعي الانسان انطلاقا من هذا المبدأ : ان ما هو منعكس (الشيء) يستطيع ان يوجد بصورة مستقلة عما يعكس (الوعي) ولكنها تبين ان هذا الوعي لا يستطيع ان يوجد بصورة مستقلة عما هو منعكس (الشيء او الموضوع « L'objet » (١٤)

لقد ظهر الانسان فوق هذه الارض في زمن متاخر جدا عن الزمن الذي وجدت فيه المادة العمياء .. وقد ظل لمدة طويلة في مرتبة سافلة جدا ، يحاول الوصول الى المعرفة بطريق حواسه التي بدأت تتخذ شكلا متطورا ، بعد اذ بدأت معرفته للعالم تغزو فضاء وعيه الذي كان قائما بدون شكل .

وقد اصبح هذا الانسان الاول مدينا لاصابعه وعينيه واذنيه في اصطداماتها بالعالم الخارجي الذي هو غابة وكهف وحيوان وسماء وصحراء .. وقد استطاع في مدة وجيزة ان يتبين الفرق بين السحلاة القديمة والافعى .. واستطاع بالتالي الا يبالي بالاولى، وان يحذر الثانية .. وقد امكنه ان يطالع عالمه كمن يقرأ في كتاب .. فحتى قبل ان يستطيع الكلام او الكتابة ذلك الحيوان الذي سفك كل ذلك الدم .. كان يتطلع حوله باحثا مكتشفا ومنقبا.. لماذا كان للدينوصور مثل هذا الذنب الضخم ولم يكن له مثله ؟. وكان عليه ان يسأل الف الف سؤال ...

كيف يهطل الماء من هذه المسطحات الزرقاء ؟.. كيف تقف الشمس والكواكب في الهواء بدون سند ؟.. ودون اعمدة .؟؟ وكان لا بد لكل سؤال ميتافيزيقي ، من جواب اشد ميتافيزيقية .. وقد اصبحت حواسه هي معينه الاول في تلمس هذه الاشكال العديدة الزاخر بها عالمنا ، هذه الاشكال التي اصبحت واجبا بالنسبة له ان يعينها وان يرقمها ويضع لها حدودها ونظمها واسماءها ، فكي لا يشير في كل مرة لزميله صارخا ومقلدا زئير الاسد ، مبرزا انيابه ونافشا شعره للانذار ، فقد اكتشف سلعة متبادلة تستطيع ان تكون بديلا عن كل فكرة يحتاج شرحها الى الاستعانة بكل اعضائه : الكلمة .. .

ان الانسان ليس الا النتيجة النهائية لوسطه ، فذلك الكاثوليكي المتعصب في « ادنبره » ، كان ممكنا ان يصبح ببساطة عجيبة ، أكثر رجال (بوذا) تعصبا للبوذية ودفاعا عنها ، فيما لو ان مصادفة بسيطة حولت وجوده الصدفي من سكوتلندا الى نانكنج .»

انه يتكلم بنفس لهجة أبيه وقريته ، بل ويدخن نفس (البايب) المنقوشة، ويرتدي البزة المجعولة له : لقد خرج الى الكون فوجد اسما وصفة ودينا وأقارب وبيئة .. لقد وجد عالما !.

(١٣) ما هي المادية (جارودي) ص ٤٠ ولنتابع الى ص ٤١ لنتبين هذه الفقرة : ان الفكر موجود ، والمادة موجودة . والقضية ليست قضية ' رد) الفكرة الى المادة وانما التدليل على ان المادة هي الواقع الاول وان العقل هو المعطي الثاني ... »

(١٤) المصدر ذاته ص ٤٣

عيوب الجسم تعالج بالمراسلة !!!

١ ــ هل انت قصير القامة ؟

يمكنك ان تزيد طولك من بوصتين الى ست بوصات بطريقتنا الجديدة المؤكدة ــ النتائج مضمونة ١٠٠ ٪

٢ ــ هل انت نحيف ؟

هل تريد ان تزيد وزنك عشرة ارطال او عشرين رطلا او اكثر ؟ لقد وجدت الطريقة لذلك أخيرا

٣ ــ هل انت سمين ؟

يمكنك ان تنقص وزنك وتتخلص من كتل الشحم الذي يضايقك بطريقة سهلة مؤكدة .

٤ ــ هل تشكو تساقط الشعر او الصلع او الشيب المبكر ؟

اذكر العيب الذي تشكو منه وارفق مع الطلب مبلغ جنيه مصري واحد وارسله داخل مظروف محكم الغلق بالبريد الجوي المسجل باسم السيد (محمود فؤاد مدير معهد فؤاد صندوق البريد ١٥١٣ بالقاهرة) يصلك العلاج اللازم فورا .

ملاحظة : كل طلب غير مرفق بقيمة العلاج لا يلتفت اليه

ان الوسط هو الدينامية الوجودية للفرد ، وهو سببه ، لان الحواس ليست الا النوافذ التي نطل بها على العالم .. وعن طريق هـذا اللقاء بالعالم تنشأ فكرتنا وفلسفتنا عنه ..

وقد استطاع ذلك الانسان الذي كان يتلصص في الليالي القمرية لاصطياد غزال ، وربما سحلاة .. استطاع ان يقرأ النجوم وان يخطط لمسارات الافلاك، وان يدمر منطقة فوق ارضه يوسع في حجمها كل عام(١٥)

واستطاع ان يدبر اموره فوق هذا الكوكب مواكبا للتطور الحتمي الذي كشفت عنه دقة (لامارك) وصبر (دارون) ..

ان النظرية المادية في المعرفة تختصر الطريق وتقول بأن العقل هو نتاج مباشر عن المادة التي هي في حركة دائمة ، وتطور خلاق ..

ان القضية (كما اشرنا في حاشية سابقة) ليست الا في البرهنة على أسبقية المادة في الوجود عن الذهن ..

ولكن النتيجة النهائية التي تبنيها النظرية المادية على هذا البرهان ، هي اهم نتائج المعرفة المادية .. فما دامت المادة(*)سابقة على الوعي ، وما دامت المادة في حركة متطورة أبدا .. فالعقل متأخر باستمرار عن قانون الاشياء الذاتي .. هذا القانون الذي يدفع بالعقل ويطور اشكال الحياة بحتمية داخلية تكمن في قوانينه ذاتها ..

اذ ليس العقل بالنسبة للمادة وحركتها الذاتية الا الصورة المنعكسة المرآوية لواقع الاشياء الحقيقية . !

***

النتيجة النهائية للنظريتين بازاء الانسان :

ان التفكير المادي في أرقى صوره : الديالكتيك ، ليس الا نتيجة لفكرة (هيجل) التاريخية ، والتي ابتكرها من خلال تفكيره المنظم المدرسي عن تطور الحضارات وانشقاقها .. فاذا كانت النظرية المادية تهتم بنفس القانون الذي وضعه (هيجل) للتطور ، نازعة فكرة الله المطلقة ، وباذرة فكرة التطور الجبري للتاريخ ، فأنها تصبح في النهاية انعكاسا للنظرة المسيحية الى العالم .. ويصبح للفردوس المسيحي السماوي الذي هو نتيجة لتصور خارق . ريفي . جلف لنهاية الكون والتاريخ ، مقابل آخر هو المجتمع الشيوعي الذي هو تصور اخر ، وحلم يداعب الانسان منذ الفجر الساحق للتفكير البدائي الاول ....

(١٥) استطاعت القنبلة الذرية الاولى على (هيروشيما) في اغسطس ١٩٤٥ ، ان تمحو عن الارض دائرة يبلغ طول قطرها (١٩٠٠٠ قدم) ، واليوم يمكن للقنبلة الهايدروجينية الامريكية ان تخجل ذلك (الرقم القياسي) وان ترفعه الى ستمائة ضعف .. وغدا .. من يدري !!.

(*) لا بد ان نشير الى ان العلم لم يستطع ان يتخلص من مشكلة بنية المادة ، اي المادة فيذاتها ، لانه مستحيل غاية الاستحالة ان يلاحظها من الداخل ، من داخلها هي بذاتها .. ولذلك يدعى العلم في نهاية الامر انه ليس الا كشفا غايته استصلاح العالم الخارجي لفائدة الانسان ، اي ان الامر ينتهي به ، وهو الباحث عن الحقيقة الحيادية ، الى اصطناع علاقة بين المادة والانسان ، كيما ينفذ هو خلال هذه العلاقة مؤكدا ضرورته البالغة ...

ان العالم يتطور خلال الذهن او خلال المادة ، اما الانسان فهو في الفلسفتين : واقع بسيط . قشري . يتابع قفزات الذهن وقوانين المادة .. وهو عاكس ابدا لقوانين الفلسفتين، وغير قادر على الخلق والابتكار ، لان العالم يخلق له ويبتكر ويضيف ، ويحقق ، ويسن ويشكل كل شيء .. ان على الانسان فقط ان يؤمن بواحد منهما ..!!

ما الانسان في الفلسفتين ، هنا وهناك ؟!

انه تحقق من خلال ...؟؟ فكما ان البذرة تحتاج ارض ومصادفة ، او ارضا وعناية .. فكذلك القانون في الفلسفتين يحتاج انسانا كوسط ، كمحيط ، كأرض ..

فكما ترتجف التربة في انينها الاموي ، وقشعريرتها اللاذة ، كلما احست بالبذرة تمتص دمها ولحمها كما يمتص الطفل عروق امه ، يرتجف الانسان ويصنع — بدون وعي — كل صور الفكرتين الالهية والمادية ..

انه يعبر في كل انشاءاته الاقتصادية والفلسفية والفنية والنفسية عن كونه فأسا بين المزارع والارض .. وبذلك يعزل الانسان ويصبح وجوده مساويا لوجود حفنة من شمبانزي افريقيا ، كان في قدرتها بدون شك ان توفق — بنفس توفيق الانسان ، طالما هو بدون وعي وتصميم — بين الفكرة الالهية التي في السماء ، وبين تحقيقها في الارض .. او بين فكرة الضرورة التاريخية ومصاحبتها على طول الزمان ..

ان المثالية تعزل الانسان بمحاولتها وضع مطلق الهي من قلب فكرتنا عن الكون ، وفي قلب الكون الخارجي نفسه .. اما المادية فهي تحاول خلق مطلق مادي هو قانون حركة الاشياء وتطورها .. وبذلك ترتبط الفلسفتان بما يشركهما بالتفكير الميتافيزيقي كله : عزلهما الانسان وشجبهما له ... اهو الانسان .. من يصنع تاريخه ..؟!

ولكن الجواب يفترض ان نفصل بين انسانين كما لاحظ (برييه) بحق ، فأنسان التاريخ القديم هو الانسان (الديكارتي) : الذي ركب بطريقة منهجيه باضافة أجزائه بعضها الى بعض ، فيأتي التفكير اولا ثم الروح المتحدة بالبدن والاهواء ... اما انسان التاريخ الحديث ، الانسان الذي يصنع تاريخه ، فهو انسان (باسكال) : انسان القضاء والقدر، والذي قذف به في ركن ضائع من الكون بعظمته وبؤسه ... (١٦)

اما الفلسفات التي كانت تابعة لتفكير القرن التاسع عشر والتي رتبت من هناك ، من مئة من السنين مضت ، تاريخ العالم كله ، ومستقبله .. فهي التي خلقت الانسان الديكارتي . المجرد .. الذي هو (نحن) العريضة المستديرة الحاوية لكل (انا) على حدة ...

ولكن فلسفة اخرى ، تقوم مقام فلسفات الشك السابقة، وليست هي ، تحد من هذا الفهم القاصر للانسان ، وتدله على خطأ التفاسير النهائية والمطلقة ، فليس الكون ناشئا عن

(١٦) ص ٥٣ (اتجاهات الفلسفة المعاصرة) اميل برييه ترجمة دكتور محمود قاسم .

نظام ، بقدر ما هو تطلب للنظام .. ليس العالم فكرةتتحقق. ولا فكرة تحقق .. انه في فوضاه واختلاطه وتضاربه ومتناقضاته : سعي بدون معنى وهدف .! برغم ان المعنى والهدف في النهاية يصبحان بالنسبة للمجموع تحقيقا فرديا للنوازع الاقتصادية والاحلام البطولية ..

وهكذا انفصلت الفلسفتان عن التاريخ الحقيقي للانسان ، وكتبتا تاريخا عجيبا ، يشابه الى حد .. ذلك التاريخ المسف الذي كتبه (روزنبرج) لتفسير التطور السلالي خلال الارية ثم متحققا في المذهبية النازية الضيقة .. ففي هذه النزعات الثلاث ، تصبح فئة خاصة من الانسان ، هي الطبقة الممتازة ، وتضحي البقية بنفسها في سبيل تلك الفئة (١٧)

ولكن الانسان ليس زنجيا وابيض ، عاقلا وبورجوازيا ، مؤمنا وكافرا ..

انه الانسان ، في غابات الملايو او الشارع الخامس بنيويورك .. هو هو مستمعا للحوار المدهش (لاوندين) مسرحية جيرودو ، في مقصورة فاخرة بالاتينيه ، او معفرا وجهه الابنوسي في التراب الالهي اسفل رب منصوب ..

وسيظل هو هو .. رغم كل الدعاوى والفلسفات التي تحاول عزله وتنحيته لان تاريخه لا ينفصل عن قدراته وارادته ..

لقد اخطأت تلك الفلسفات بمحاولتها العلو عن الواقع بافتراض قوى غيبية أحيانا ، وطبيعية احيانا أخرى ... ولكن ذلك الواقع لا يني يردها الى الارض عنوة في كل زمان ..

وبذلك اصبح ضروريا ان تنشأ معرفة اخرى بديلة وهي ليست (مجرد عملية عقلية بحتة تقوم بها ملكة مجردة هي ما اصطلحنا على تسميته باسم (العقل) ، بل ان مصدر المعرفة هو تلك « التجربة الحية » التي فيها نختبر الواقع ونعانيه (١٨)

انها ذلك الفتح المفاجيء ، والغزو الخالي من المعنى القديم لصميم الاشياء ، ولذلك فهو معرفة صبابة وانفعال ، وهي تناول لكافة المظاهر من نبوع جديدة .. غير ان فضلها في عدم سقوطها في التفسير الذي يجر اليه ضرورة التاريخ، ومطلق الالهة ... انها معرفة تقول بأن ليس المهم هو ان نواجه برود شجرة السنط هذه بكل كثافتها وثقلها ووجودها البعيد عنا ، لان المعرفة القديمة تنتهي بان تضيف الى عقولنا مركبا جديدا ، هو مجرد تصور للعالم ، وهذه التصوارات العقلية لا تصبح موضوعات الا بفضل علاقاتها بالوعي او الشعور .. » (١٩)

اما المعرفة الوجودية فتقوم على اكتشاف للاشياء والذات عبر مرحلة من اخطر المراحل التي تفصل موقف الاشياء بالنسبة للانسان .. فهي ليست هذه الاشياء التي هي الهتي : هذا المقص ، وهذه الدواة .. وكل المظاهر التي تنتمي الى ما هو عالم قائم بذاته ، بل ان العالم هو قران الاشياء بالاشخاص ، وهو لذلك قائم في علاقة ــ وهي ليست العلاقة المثالية القديمة ، لانها تفترض ان الانسان هو حكمة الكون وغايته ــ وهي علاقة تقوم على التخلص من عبودية الاشياء ، بينما تنمو من الجهة المعاكسة،مقابلة أخرى تتخذ من العالم (وسطا ..)

ولذلك فالانسان ، كما تعرفه الوجودية ، ليس هو نتيجة اختيار الهي وهو ليس نتيجة حتمية مادية تتيح استنتاجات لا حصر لها .. انه ليس الا هذا الكائن الذي يمارس وجوده عائدا اثر كل رحلة الى ذاته كي ينمو بها (ليس ذلك النمو الهيجلي) الى مرتبة الوجود الحقيقي ..

ان الوجودية الملحدة ــ على الاقل ــ توافق على مقدمات النظرية المادية في المعرفة ، بيد انها تتخلى عما تسميه الفلسفة المادية (روح التاريخ) ولا تتمسك بالزعم الماركسي الذي يتيح للتطور التاريخي ان يصبح تطورا في صف البروليتاريا الى المشاعية النهائية .. وقد يفسر هذا قول « فيورباخ » : « اني اذا اتجهت الى الوراء كنت متفقا مع الماديين ، واذا نظرت الى الامام خالفتهم .. » (٢٠)

(١٧) كل هذه التقاسيم المجزئة لبنية المجتمع ، صادرة عن تقسيم أفلاطون الشهير في (جمهوريته)

(١٨) الفلسفة الوجودية (دكتور زكريا ابراهيم) سلسلة اقرأ العدد ١٦١ ص ٢١

(١٩) نفس المصدر ص ٢٥

(٢٠) (المثالية والمادية) مجموعة مقالات لانجلز

ثلاثة كتب

يجب ان تقرأ اليوم :

ــ شرارات من بغداد

ــ علي باشا جنبلاط

ــ الشيخ بشارة الخوري

دار المكشوف ، بيروت.

نزهة الجلساء

في

أشعار النساء

تأليف

جلال الدين السيوطي

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

نشر

دار المكشوف ، بيروت

فهم يصدرون عن نظرية طبيعية ومقبولة لنشأة الذهن عن المادة المتحركة غير انهم يصدرون عن افتراضات مثالية ، حين يهيئون الاذهان للقصد المرسوم في مستقبلية التاريخ ، ويحطمون كل نظرية تخالف رصدهم للتاريخ . . (٢١)

التاريخ من وجهة نظر مسيحية :

اذا أفضت (ضرورة) التاريخ في المذهب المادي ، الى الميتافيزيقا ، فان اقرار التدخل الالهي في صميم الارادة البشرية يفضي الى ما هو اشد ابتذالا : الى الخرافة . .

التاريخ فعل ماض ملاحق لافعالنا الحاضرة ، وهو بسبب ذلك لا يمكنه ان يتدخل في مستقبلنا ، لانه يتالف من الاحالة المستمرة للواقع الآني الى الخلف . . انه لا يدخل في مستقبلنا لانه اشارة الى وراء . . الى زمن مضى .!

ها هو في النهاية عالم يسكنه الشر والخير ، الضلال والحق ، الظلام والنور ، عالم بشر وحب . . عالم حاشد يتألف من تجارة الافيون في شنغهاي ، ومن الربح الحرام للبن البرازيلي ، ومن التعريفة المجرمة لتضخم الحد الادنى للاستشارات الطبية في نابولي . .

وها هو من ناحية اخرى النشاط المقابل ، والذي هو الربح المعقول للتجار النصف ، الذين هم في انتظار دائم للزبون ذي التكشيرة الغبية . . وها هم موظفو المصالح والشركات والعمال الذين يتلقون اول كل شهر مرتبا يكاد يفضي بهم الى اليوم السابع من الشهر الذي هو ايام الف . . »

ها هم اللصوص والطيبون ، الوادعون والانتهازيون يترجحون في عالم مضطرب . حي مليء . زخم !. وينظر الاله الطيب من سمائه الزرقاء : الخاطئون . . »

ويتجسد الرب الاله في صورة يسوع ليزيل الشر عن الارض برغم البشر ورغم الرومان ورغم قانون الطبقات ، ممزقا جسده الآلهي على الصليب ، ثم مرفوعا في النهاية بين لصين من اتعس اللصوص .!

ان التاريخ المسيحي فكرة مطلقة بثت وسط البشر وفعاليتها قانون حتمي ينبث في ضمائر الناس . . ان التعدد البشري ليس الا ظواهر . . يربطها الكلي الواحد ، والذي يتناقص مفهومه لدى أكبر مفكر مسيحي (القديس أوغسطين) :

« ذلك ان كل موجود فهو واحد بماهيته ، ولكن ثمة فرق بين وحدة الجسم القابل للقسمة بما هو جسم ، وبين وحدة النفس التي لا تنقسم بحال . . » (٢٢)

ان فكرة الكلي في المنهاج المسيحي ، تعود بنا الى فكرة الحتمية في المذهب المادي . . فتصور أوغسطين والمجتمع المسيحي كله ينحصر في وجود مدينتين : احداهما المدينة الارضية ، والاخرى المدينة السماوية او (مدينة الله) « وبينهما منذ البداية حرب هائلة ، تجاهد الواحدة في سبيل العدالة وتعمل الاخرى على نصرة الظلم ، ولن تزال هذه الحرب مستعرة الى نهاية العالم ، حتى يفصل بينهما المسيح في آخر الازمان ، فتنعم الواحدة بالسعادة الابدية ، وتلقى الاخرى جزاءها في النار التي لا تنطفىء . . » (٢٣)

نزعت المادية في تصورها للضرورة الشاعية ارادة الانسان ، وعزلته وسط حتمية التطور التي تدفعه وتنحيه وتشير له وتعين حظوظه . .

وقد اصبح الانسان بالنسة لها (ثورا) بدون دماغ ، تسوقه سياط بدون رحمة ، في يد العقل الذي يسوق العربة والذي هو (حتمية التاريخ . .) . .

اما الانسان بالنسبة للتصور المسيحي فهو طفل ضال ترشده العناية الالهية (٢٤) وهو بدونها سخيف ولا قصد له . . وليس العالم الا انتقال الفكرة من حضيضها الحيواني منذ

ـ التتمة على الصفحة ١١٤ ـ

(٢١) لاحظوا فقط ، ومن مثال واحد ، كيف هاجم (جدانوف) هجوما شائنا فظيعا مؤلفا في تاريخ الفلسفة الغربية وضعه (ج. الكسندرف) تناقض فيه (ص ٣٥٧) مع انجلز في نظرية حفظ الطاقة وتحولاتها . . ص ٣٣ : جدانوف (حول تاريخ تطور الفلسفة)

(٢٢) خلود النفس (أوغسطين)

(٢٣) تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط (يوسف كرم) ص٤٥

(٢٤) خلق الله بعض الاشياء (بالفعل) وهي الدائمة الثابتة على صورتها ، والبعض الاخر (بالقوة) وهي الكائنة الفاسدة ، ومن هذه الكائنات الفاسدة الانسان . . »

. . كم هو متلو، وساذج هذا التفكير المتناقض ، الذي يعزو شر الانسان الى كونه مخلوقا بالقوة بواسطة الله ، وبين رغبة الله الذي يبعث الرسل الى الارض لترشد الانسان . .»!

مكتبات انطوان

فرع شارع الامير بشير

تقدم لكم بمناسبة ابتداء السنة الدراسية

لعام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩

اكبر مجموعة من الكتب المدرسية

عربي ـ افرنسي ـ انكليزي

بيروت ـ تلفون ٢٧٦٨٢

الوجودية لماذا ؟

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

آدم ، حتى رقيها الروحي لدى المسيح ..

ولذلك كان محتما ان يصل عصرما ، في كوكب ما .. الى صلب ربه ، وقد وقع اختيار الله على ارضنا الشريفة ليدبر مقالبه . .

ان الحتمية التي تفرضها المسيحية ، والتي هي الوصول بكل هذه الاثقال من الشرور والخطايا والرغبات الدفينة والمختفية حتى (مدينة الله) : ارادتنا كبشر ومشيئة الله .. الافعال الصادرة عن الادارة هي افعال انسانية لها غاية وقصد ... اما مشيئة الله فهي اختياره الجزافي ، وحكمته التي تعينه وحده ..

فلو كانت الخاتمة والجزاء في مدينة الله وفقا للارادة الانسانية ، فالتاريخ صحيح ، وبدون تناقض ... لان الارادة هي تأمل ثم اختيار داخلي ، ثم تصميم ، ثم فعل يتحقق ..

ان المطلوب الان هو ان نصل بهذه الارادة ، وسط هذا الطريق اليومي الحافل بالمصاعب والعواقب والمغريات والاشواك ، حتى الفردوس السماوي الذي هو جائزة عدم التفاتنا لطبيعتنا بالذات .

والطريق الاخر الذي يصل بالانسان الى النعيم السماوي هو حصيلة التناقض بين الطريق الاولى ، وسبق معرفة الله .. المطلق . الكلي الخالق ..

والمطلوب الان ، للمرة الثانية ، ان نحاول التدليل بحرية اعمالنا ، وانفصالها عن العلم الالهي : لنفترض ان الله يعرف مسبقا انني قاتل حتما لعبد الغفار بن منصور في الساعة السادسة والربع من مساء يوم الجمعة الثامن عشر من أغسطس عام ٢٠٠٢ م .. ايستطيع هذا (العبد الحقير..) الذي هو انا ، محاولة التملص من هذا الحكم الابدي ..؟

تصوروا .. فيما لو مر هذا اليوم الاغبر بدون جريمة قتل ؟! ايستطيع الله أبدا ان يظل فوق عرشه مدللا بألوهيته؟! أيستطيع ان يطمئن على اقداره ..؟ فلماذا نصب آلهة اذا كان جاهلا بالمستقبل والتاريخ والزمان .؟!

حتمي اذن ان اقتل (عبد الغفار) في ذلك اليوم ، كائنا ما كنت بريئا وغير راغب في قتله ، لان ارادة الله نافذة . آمرة . حتمية ...

تطبيق بسيط جائز من المسلمة الاولى على المسلمة الثانية يتيح لنا ان ندرك التناقض كله : ايستطيع انسان ان يكون حرا .. بمعنى ان تنفصل افعاله عن تاريخه المكتوب والذي يعرفه الله حرفا حرفا .؟!

غاية في الاستحالة ..! لانه متناقض ان يكون الله وجودا ويصبح الانسان حرية ..!.

لذلك فالتاريخ المسيحي محاولة للتنصل من العبء الذي اختار البشر ان يحملوه فوق أكتافهم : الحرية الانسانية ..

فاذا لم يكن الانسان حرا من الفكرة المسيحية ، فهو تابع للضرورة الالهية ، وبذلك يصبح التاريخ ماء يسيل في مجرى محفور منذ البداية ، ويصبح التاريخ ماء يسيل في مجرى وننتقل مرة ثانية الى الميتافيزيقا الغيبية التي تحاول ان تفسر كل شيء .. بأشياء لا شيئية لها ..!!

التاريخ من وجهة نظر مثالية

القرن التاسع عشر هو قرن فلسفات التاريخ التي تجاهلت الفرد وأقامت فروضها على أساس (الحقائق العلوية التي تفرض على الافراد طريقة سيرهم في الحياة ومشروعاتهم) (٢٥) .. وعلى اساس من هذه الحقيقة اليسيرة أصبح اختفاء الفرد من فلسفات (هيجل . كونت . ماركس) طبيعيا ولا شك فيه ... فجميعهم يصدرون عن فكرة (هيجل) في التاريخ ، وان زعموا العكس ، فالضرورة الميتافيزيقية في مذهبه ، تصبح الضرورة الطبيعية في المذهب المادي ، وضرورة النمو العلمي في مذهب (كونت) على حساب عزل الفرد .

ان الامر هو كما يلاحظ (برييه) بحق : ان فكرة العلاقة بين الانسان والتاريخ لم تتطرق الى التفكير الغربي الا بعد مجيء المسيحية ..» ذلك ان المسيحية هي التي نظمت وجود الانسان على اساس من خطيئة آدم في البداية ، ثم الثواب والعقاب في النهاية ، واصبح التاريخ مسارا معلوما مرتبا ، بدىء به منذ الازل ، ويظل في ارتجاف وتخط وحركة دائمة ، حتى نهاية الوجود وبدء اللحظة الخالدة .. ولذلك فالتاريخ المسيحي « يرتبط بالمستقبل على وجه الخصوص .. » (٢٦) يرتبط بتلك اللحظة التي تبدأ عندها الحياة الجديدة في تصور المؤمنين ! فكل تصرف عرضي للفرد في الزمن الراهن ، مصحوب برعشة أبدية أساسها الاخلاق المسيحية ، وعقابها نار السماء المصلتة على الرؤوس كمقصلة الثورة الفرنسية الانسانية .

ولم تكن الفكرة المثالية عن التاريخ الا صدورا مباشرا عن الفكرة المسيحية ، فالاله المسيحي موجود في صورة اخرى ، والضرورة المسيحية موجودة في شكل آخر ، حتى في الفلسفة المادية التي لا تستطيع ان تنفي صدورها المباشر عن الفلسفة المسيحية ذاتها ..

ولذلك فأنه عسير ان نحاول استخلاص فكرة للتاريخ عند (هيجل) مخالفة للفكرة المسيحية ...

---

(٢٥) اتجاهات الفلسفة المعاصرة ص ٥٤

(٢٦) المصدر السابق ص ٥٨

فانها تمثل واضح للتفسير اللاهوتي لتتالى الحوادث (٢٧)

ان العقل هو الحقيقة التي تدل عليها اوضاع النجوم والكواكب ، وتلاحق الصباح والمساء ، وامتدادات الفضاء الزاخرة بأنواع الشموس والسدم .. انه « المضمون اللانهائي ، اي انه كل ماهية وكل حقيقة ،وهو مادته الخاصة التي ينشئها لذاته بنشاطه الخاص . انه لا يحتاج كالفعالية المحدودة ، الى مواد خارجية . انه المادة التي يصوغها من اجل نفسه .. » (٢٨)

ان العقل يدبر الكون ، ويدبر التاريخ .. لانه الذي « يتألف منه القوانين الثابتة التي تحدث بموجبها حركة النظام الشمسي .. » (٢٩)

ان كل فعل ، وكل حركة ، كل نبضة قلب ، وكل خفقة مادة في عروق نبات .. كل اشارة انما هي فعالية للسببية التي تفسر كل شيء . انها دلائل عقل يعمل بدون لفتة من مصادفة ، وليس الكون الا حركة متجهة نحو الوحي الكلي ، او العقل الذي هو بدون تحديد ، وبدون تاريخ ..

ان هذا التطور نحو الفكرة (لايتحقق عن طريق المصادفة، وانما وفقا لقوانين منظمة حتى لا يمكن لشيء أن يبدل فيه) (٣٠)

ان (هيجل) يحاول ان يدل بوجود اشارات رئيسية في خط التطور البشري ، فكأنه يشكل الاساس الاول للمنطق التاريخي المادي ، انه يتصور الظواهر الفردية ، بكل ما فيها من تناقض وتنافر واصطدام ، وجزئية .. كيانا واحدا يتحقق من خلال تناقضاته .. من خلال تعدداته ، فكأن الظواهر هي بدون حساب ، هي وسيلة نحو كسب الكلية (الالهية عند هيجل ، واللامنطقية المشاعية عند الماديين) . ان الارادة البشرية هي بدون عمل في فلسفة (هيجل)، بدون سلوك ارادي طالما يشرف على كل شيء منطق الفكرة الخارج عن البشر ، وان العمل الانساني الذي هو التقاء برىء بالمادة وتحقيق واضح للمنفعة ، يصبح هنا في هذه الفلسفة الملتوية، اشارة نحو كلي يبزغ في كل تحقيق جزئي.

ذلك لان فكرة الكلي الفلسفية هي نتاج مباشر من منتوجات ذهن متصور ، اذ لم يكن منطقيا ابدا ان يكون هذا العالم وهذا الوجود الثقيل صورة من لا شيء ، مندفعة لاقرار تخطيطات جزئية وشخصانية ، ولا تجمعها مدركات واحدة ..

ان الكون هو وحدة ، وهو طريق نحو لا نهائية تتخذ احيانا شكلها الختامي في صورة تصوف ، واحيانا في صورة فكرة غير الهية تدفعها يد الضرورة (٣١)

ولذلك اتخذت مثالية (هيجل) طريقا يؤدي الى خنوع الانسان ازاء القصد الكوني .. على كتف منحنية ، هي بتر حرية الانسان (٣٢) ...

ويصبح نابليون والقيصر ، هما التاريخ العام بدون نابليون وقيصر ... هما التاريخ الذي كان لازما وجبريا ان يوجد في هذه الصورة « ان الرجل العظيم هو الصورة المعبرة عن فترة الزمن التي عاش فيها ، وليس في عمله سوى احدى الوسائل التي يستعين بها الروح العام لتحقيق غاياته (٣٣) »

لان العقل يحقق غاياته بطريق الرجال العظام احيانا ، وبطريق الثورات الجماعية أحيانا أخرى .. ويصبح اختيار الفرد لحزب من الاحزاب بوعيه ومنطقه العقلي ضرورة الهية! ولكن لنلاحظ ان التاريخ عند (هيجل) لا يهتم الا بالحركات العامة ، مؤكدا ابتعاد نظرته عن التحققات الجزئية ، (فالنازية) هي خطوة نحو الكون الالهي لانها حركة عامة ، شاركت في اخضاع نظرات اخرى .. اما اختياري انا الشخصي لواقعة تخصني ، فان التفكير الهيجلي ينحيها جانبا لانها برغم انها مشاركة في الكيان العام ، الا ان خصائصها الجزئية تفصلها عن هذا الكيان بشكل باتر ...

ولذلك فتنت (هيجل) حضارة البحر الابيض ، حضارة الفتوحات ، حضارة الاسكندر والرومان ، ولم تفتنه حضارة الهند والصين ، لان المطاف الحضاري لثقافة البحر الابيض ينتهي الى (العالم الجرماني) حيث تم الفوز للروح في هذه المرحلة النهائية العليا (٣٤) ولان الحضارة الاسيوية كانت حضارة افراد او (حضارة استبداد حيث يتمتع فرد واحد بالحرية)(٣٥)وحيث يصبح هذا النظام تحقيقا للمرحلة الطفولية في واقع الحكم ، والذي يصل في صورته النهائية

---

(٢٧) . لا نستطيع ـ لضيق المجال ـ ان نعود لفخته وشلنج ، اللذين يصدران عن فكرة مشابهة .. فهيجل يمثل الفكرة المثالية في أعلى صورها وارقى تعدداتها .. غير انه لا يمكننا التثبت من ان (العقل الهيجلي) هو (الله المسيحي) ذاته ، برغم تشابههما ، وعلى هذا فسوف نفترض اختلافهما الدرجي البحت ، لغرض واحد ، هو ان نحاول التدليل عن طريق (هيجل) نفسه ، بأن التاريخ المادي ليس في النهاية الا التطبيق العنيف للمنطق المثالي ذاته ...

(٢٨) (٢٩) (هيجل) أندريه كريسون . اميل برييه . ترجمة الدكتور أحمد كوى صفحات ـ ١١٤ ـ ١١٥

(٣٠) المرجع السابق ص ٣١ . لاحظوا اتفاق المثالية والمادية على هذا النص ..

(٣١) هذه التفاسير التي ارادت الا ينفرد الانسان بواقعه الذاتي ، والا يكتشف وجوده في الكون .. وجوده الغريب ، الصدفي ، والذي كان ببساطة تدعو للدوار ، متوقفا على مجرد نزوة رجل وامرأة .. اب وام ...

(٣٢) بيد ان الشعوب والافراد لا يدركون السبب الحقيقي الذي يفعلون من اجله ما يفعلون . هم يظنون انهم يعملون من اجل انفسهم، ولكن الحق انهم لا يعملون من اجل انفسهم فقط وانما يتضمن عملهم افعالا تفسر بالمهمة الملقاة عليهم من قبل الكون .! ص ٦٦ (هيجل) الا تدلنا هذه العبارة الصافية بميتافيزيقية (هيجل وماركس) .؟!

(٣٣) ص ٧٠ المرجع ذاته .

(٣٤) ص ٦٧ المرجع السابق

(٣٥) وربما كان من الافضل ان نشير بقراءة (كاليجولا) لالبير كامو . فالفرد الوحيد الحر الذي يعنيه (هيجل) هو الدكتور . الحاكم المطلق الذي يريد (القمر) ويأمر وزراءه بالثرثرة ، ثم بالكف عنها ... ثم يتفوه في النهاية بهذه الكلمة النادرة : « انني برهنت لتلك الالهة الزائفة ، ان الانسان ـ لو صدقت ارادته ـ يستطيع دون تلمذة ان يمارس مهنتهم المضحكة .! »

الى (ارادة الحاكم وارادات المحكومين الحرة ..) !

وهكذا تصبح مثالية هيجل في خاتمة المطاف قريبة الشبه جدا من المثالية المسيحية ، ان لم تكن هي.. وغير بعيدة ابدا عن مثالية الماديين التاريخية (٣٦). انها شكل واحدلكل هذه التطبيقات التي تحلم بصورة مسبقة للعالم، والتي هي نتاج لا شك فيه لاحلام ورغبات ذلك الكائن الذي سجد للشمس والفضاء والنار والبقر والله .. ثم المادة أخيرا .. ولما كان عسيرا على الانسان ان يتصور وجوده في الكون غير قصدي ، فانه يشكل اكوانا صوفية ، خلال غيبوبة او ملاحظة لتهرؤ طبقة !! ..

***

التاريخ من وجهة نظر مادية

لا بد أن نفرق في مجال التاريخ المستقبلي بين الانتظار والتوقع . فالانتظار هو حتمية حدوث واقعة ضرورية لا بد منها ، كالوصول الحتمي لقطار الاسكندرية في الثامنة مساء .. والتوقع هو امكان حدوث واقعة مجفلة عرضية.. كخلل في قطار الاسكندرية يمنع حضوره ويعطله لفترة !.. الانتظار مقنن ، مدروس . مرتب . رياضي ولذلك فهو علمي ..

التوقع فجائي. حادثي . جانبي ولذلك فهو غير علمي ، انه رهن بمصادفة.. ببقرة شاهدت في لحظة نادرة مجموعة من العشب الطري على طرف قضبان القطار !..

ان وثوقنا من وصول قطار الاسكندرية في الثامنة يدفعنا الى اتخاذ سلوك معين تابع لوثوقنا بالذات ، فنحن نرتب حقائبنا ، ونودع اصدقاءنا واحباءنا ، ونلتهم لفافات تبغنا كلما دنت الساعة .. اننا نتوجه بكل طاقاتنا الى التخلص من اعبائنا كيما نواجه عبئنا الاخير.. : الرحيل !. اننا (نعمل) للسفر ، لاننا واثقون من مجيء القطار ، بيد اننا نشك احيانا في امكان وقوع حادث للقطار يمنع حضوره ، ولكن هذا الشك الذي هو عرضي ، لا يدفعنا الى اتخاذ سلوك ايجابي ازاءه .. اي ان توقعنا لحدوث الخلل في القطار لا يدفعنا الى ان نعيد حقائبنا للسيارات ، او ان نمزق تذاكرنا ، ونعود الى بيوتنا .. اننا لا (نعمل) كذلك ، لان التوقع ليس دافعا الى الفعل ، ليس مشروطا ببعدية سلوك فعلي ..

والان !.. هل نتوقع أم ننتظر مجتمعا شيوعيا ؟! ان سلوكنا الفعلي ازاء هذه الحقيقة التاريخية سوف يدلل بموقفنا من النتيجتين (التوقع ـ الانتظار) اذا كنا ننتظر هذا المجتمع فهذا يعني اننا قد اطفأنا لفافات تبغنا ، واعددنا حقائبنا ووقفنا بانتظاره .. بانتظار وصوله الذي يصبح غير مرهون بارادتنا ...

ان انتظارنا لهذا المجتمع هو مؤكد ولا سبيل الى رده .. انه حتمي ..

ولكن العلم الذي هو سلوكنا الفعلي لاقرار ذلك المجتمع ، ليس منظما ، ليس رياضيا ، ليس تابعا لخطة وقصد ورسوم ...

ان العلم في صورة الانتظار هو سلوك منظم وكشف منظم وتدليل منظم ... ولكنه في صورته الحالية سلوك فردي ، وكشوف فردية ، لا يتبع الكشف فيها الاخر ولا يواكبه .. انه باستمرار تابع لمجهودات العلماء الشخصية وامزجتهم ، انه يقترب من الاجتهادات الفلسفية المتعارضة والمتناقضة ، والهادم بعضها البعض (٣٧) ان العلم يصبح في هذا الشكل الغريب جزئيا وملتويا ولا قصد له .. انه يوارى اخطاءه أحيانا ، ولا يستطيع وضع مثل هذا القانون (٢+٢=٤) لانه عسير لديه ان يؤكد ظاهرة ... خلا الظواهر الكيمائية والكيمائية الطبيعية ، لانها في النهاية نوع من الرياضة السابقة تحصرها قوانين تشبه القوانين

(٣٦) لم تستطع الفلسفة المادية ـ وهي النتاج المباشر عن افكار هيجل ـ ان تتخلى عن فكرة المطلق ، نواة التفكير المثالي ، فحاولت ان تنشىء مثالية داخلية بشعبها للمطلق الالهي الميتافيزيقي ، وخلقها للمطلق الطبيعي الذي هو التطور المحدد للطبقات في المستقبل ، بدون ان تتدخل ارادة الانسان وقصيدته .. »

(٣٧) ما زال العلماء في مجادلات عنيفة حول نظرية التمدد الكوني ، ونظرية الموت الحراري ، وحول كيان المادة على العموم . يراجع السير جيمس جينز ، ومنكوسكي ، وجارودي ..

الرياضية تماما : الجليكوز تحضير مباشر عن الجليكوجين . . اذا امتزجت وحدتان من كتلة الهيدروجين مع ١٥،٥٦ وحدة من كتلة الاوكسجين لتأليف بخار الماء ، فستنشأ خلال هذه العملية كمية من الحرارة هي ٦٨،٩٢٤ وحدة حرارية . .

ان الزمن يثبت خطأ فرضية العلم الانتظار ، فكل عالم هو دنيا كاملة ، مفصولة عن كل العوالم الاخرى ، لها منطقها وملاحظاتها وادراكها ، لذلك يحدث ان تصبح السلفا التي كانت في البدء عقارا لا بد منه في شفاء حالات معينة ، مهلكا للكليتين . . ويصبح البنيسلين الذي ادى اكتشافه الى تأليه مكتشفه وحيازته لاكبر جائزة علمية ، عقارا يستعمل بحرص وضآلة شائنين . .

يكتشف الراديوم من اجل استعمال مباشر ضد تكيفات السرطان الاخطبوطية ، ولكن للراديوم الذي يفتك أحيانا ببعض الخلايا المتورمة ، تأثيرات غامضة وغير معروفة في الاجزاء الاخرى للجسم البشري ، وقد يكون لها من الضرر تأثير مباشر وفعال . . . وذلك لان الاخصائي يعتمد فعالية الراديوم ـ في ـ السرطان ـ وليس في اي شيء اخر . . وهذا التجزيء الشائن ، ودعوى الاختصاص هو علامة واضحة الدلالة بعجز العلم عن الكشف والفهم ، بدون ان يجرؤ على مس الكل في وحدته العميقة . . وهو لكيما يضع قانونا عاما ، لا يستطيع ان يمنع يده عن التفتيت والتهشيم كي يجمع قانون كل جزء على حدة . . ومن هنا يصبح الاختصاص الذي هو شفاء جزء ، مرض جزء اخر . . ان مثل هذا التفتيت يمنعنا ان نعلم بصورة اكيدة تأثير الراديوم في الغدة الصنوبرية ، او في الجينس او العصب السمبتاوي ، لاننا نملك معرفة كل جزء على حدة ، ونضع لكل مرض دواء خاصا لا نعرف اثره في الاعضاء الاخرى ، لان علمنا هو علم اختصاص ، علم جزئيات ، ومن ناحية اخرى يظل العلم تابعا لمشيئة العالم ، وذكائه الخاص . أنني لأجرؤ على ان ان أقول ، ولذلك فالعلم ليس الا علم العالم ذاته . . . علم فلمنج وملتزر وشاركو .

انه يظل مرتبطا بمزاج العالم ، ونفسية زوجة ، ومشيئة عشيقته ، او مرض كلبه الفالدمان الرائع . . ذلك لان نظامه الذي يتبعه في اكتشاف قوانينه متوقف على مصادفة ، ومترتب أحيانا على حساب أضيف اليه من همسة مساعد او اضطراب كف . . .

وتدلنا حوادث عديدة بان مختبرات التحاليل تصادف كثيرا ، قوانين يكشف عنها بواسطة اخطاء اختبارية ، ولذلك فالبحث العلمي تابع للمصادفة ، وللخلط . .

ان هذا (التوقع) الذي كنا نود لو ينبىء عن موقف ذي اتجاه علمي رياضي ، يحيلنا الى نوع من السلوك المتضارب الذي يستحيل ان يدل بخطة متزنة . سليمة . عقلية رياضية . . انه يظل عملا قابلا للرفض او التنقيح . .

فاذا كانت الرياضيات ، والتي هي عالم حتمي وكامل يدل احيانا بخطئها البالغ ، وان الاكتشافات المتأخرة لتكافؤات الكتلة والطاقة ، والهندسة الفضائية ، والزمان النسبي ، تقضي القضاء المبرم على الرياضيات القديمة . . الا يدل هذا المثال الذي هو ثقيل ومضن ، على انه من الممكن ان يصبح علمنا نفسه الذي هو علم مصادفات مشكوكا في تأثيره ؟!

ولذلك فان علمنا هو اخيرا علم توقع ، علم حادثة قد تقع فجائية ، عرضية ، لا تحتم سلوكا معينا ازاء حالة التوقع التي يفرضها (٣٨) ، فاذا كان التاريخ (توقعا) مستمرا وزمانا مفتوحا لكل بطولة وكل خيانة ، فانه يفضي في النهاية الى عدم ارتباط غده بأمسه . ان الزمان الآني يستطيع اثر كل تحديد طاريء ان يهدم القصدية الموضوعة.

أكانت خيانة يهوذا ضرورية . . !

لقد ظلت مصر القديمة ، والتي وحدها (مينا) الملك ، قوية راسخة ، حتى هجم عليه في صباح أغبر وحش من وحوش الماء قضى عليه ، وكان سببا في قلقلة مركز أمة بكاملها . . لنفكر في (ليرمونتوف) الشاعر الروسي الرائع ،

---

(٣٨) « ومنذ عهدقريب ، قامت الميكروفيزياء ، وضربت ضربتها القاضية على ما كان يعتبر مسلمة اساسية في العلم ، ونعني بذلك قانون الحتمية . . صحيح ان الاسباب ذاتها تولد النتائج نفسها في مستوى معرفتنا ، بل على الاقل في مستوى العالم الفيزيائي ، وصحيح ايضا ان تأثير الاسباب الفاعلة ، في ظروف مشخصة واحدة ، لا بد له من ان ينتهي الى محصلة واحدة . . بيد ان هذا الضبط لا يصح في مستوى الميكروفيزياء ، فكما أظهر (هايزنبرج) Heisenberg ، يستحيل علينا ان نقيس بصورة دقيقة ، كمية من الحركة التي يقوم بها جسيم بسيط وان نحدد في الوقت عينه موضوعه في الموجة المرتبطة به ، بحسب الميكانيكا الموجية التي نادى بها (لويس دو بروجلي) فكلما كان مقياس موضعه دقيقا كان هذا القياس عاملا في تعديل الحركة ، ومن ثمت في تعديل سرعة الجسم بصورة لا يمكن التنبؤ بها » ص ١٣٠ ـ ١٣١ الديالكتيكية (بول فولكيبه) تعريب تيسير شيخ الارض

اما كان حتميا لو لم يقتل من مبارزة هوجاء ان يتغير الشعر الروسي جميعه بتأثير عشر قصائد جديدة من عبقريته الملتهبة ؟!.

ما الذي يجعل حدثا ما منتظرا ويقينيا في المستقبل؟ ما الذي يجعلنا واثقين من وقوع أمر ما في الازمنة القادمة المجهولة ، والتي لم تكشف لاحد أبدا ؟!

اولا ، هي تجاربنا ، فعندما نضيف مقدارا من كذا الى كذا فان الناتج هو كذا ، فاختباراتي تدلني على ما يحدث في المستقبل في نوع معين من المستقبل !.. الرياضي . الكيميائي .. الذي يندفع عنصر فيه ميكانيكيا الى الالتقاء بعنصر اخر يتألف منهما عنصر ثالث اعرف وزنه وطبيعته .

اي ان السبب الاول مشروط بالارادة والفعل البشريين.

اما السبب الثاني فهو ملاحظتنا (وان لها لدرجة تقرب من درجة التجربة ، غير انها تخلو من العمل الارادي الموجه) اننا نلاحظ ان الطبيعة تتخذ اوضاعا ذات تصاعدات تطورية ممكن قياسها ، في ظروف علمية معينة .. وهذا النوع من المعرفة المستقبلية مقتصر على الملاحظة ، بدون ان يكون لارادتنا دخل ..

لنلاحظ ان نوعين من المعرفة ينشآن للتدليل على نوعية التاريخ المستقبلي احدهما ارادي خاضع للرياضة والتنفيذ العلمي ، والاخر غير ارادي . خاضع للملاحظة البصرية ..

فرق واضح بين معرفة (الارادة) ومعرفة (الملاحظة) فالاولى بشرية ، والثانية فوقية خاضعة لقوى غير منظورة.

فاذا لاحظنا ان خطأ صغيرا جدا في مقدار المادة المضافة الى مادة اخرى في المعرفة (الارادية) ينجم عنه تغيير وتبديل هائل في (كيفية) المحلول الناتج عن العملية الكيمائية مؤلفا الجانب الشكوكي من معرفتنا .. فهلا نستطيع تصور الاخطاء الكبيرة التي تضيفها معرفتنا الحاسية الى معلوماتنا وادراكنا ؟!

ان المعرفة الارادية مشروطة برغبتنا ، بعنف رغبتنا ، وعملنا ، عملنا العنيد الواعي .. اما المعرفة الملاحظة فهي التي تنبئنا عن قرب غروب شمس أو مدى تقدم عاصفة انها معرفة لا تهتم بالانسان ، وهي تعبر عن حتمياتها بلغة الطبيعة ، في ظواهر الاشياء : في تراجع كلابتي الجليد عن قطبي الارض ، في التنبوء بالمسار الاهليلجي لكوكب متعثر .. ولكنها لا تدخل في عالم الانسان الذي هو ارادة لانه يغير بذاته طرقه ووسائله وحكمته ..

فبأي وسيلة من هاتين الوسيلتين يصبح التاريخ خطا موصولا قصديا لاقرار المجتمع الشيوعي.. بأي معرفة من المعرفتين ..» (٣٩)

انها تزعم بان معرفتها هي (نبوئية) . اي تابعة للملاحظة ولذلك فهي فوقية طبيعية !

ولكن المعرفة الطبيعية لا تؤثر في الانسان مباشرة ، كما تؤثر فيه معرفته الارادية ، لان للمعرفة الاولى ميدانا وحيدا هو السحب ، الكواكب ، زهور الجاردينيا . جبال الانديز والسيبرانيفادا !.

اما تغيير الانسان ووضعيته ، فهو خاضع حتما لارادة الانسان . ان المجتمع الشيوعي يدلل بان المجتمع الانساني متطور في هيجلية لا بد من تحقق طباقها الثالث الى مجتمع بدون طبقية ..

لا يخضع هذا الزعم الى المعرفة الارادية ، لانه يتخطاها ، ولا يخضع للمعرفة الثانية ، الخاضعة للملاحظة ، لاننا لا نعرف سوابق لها في التاريخ ، ولا ندري اذا كانت اللاطبقية هي الصورة المثالية لما يجب أن يكون عليه عالمنا ! لان الصورة الوحيدة للاطبقية كانت ايام شيوعيتنا الاولى ، وهي فترة ــ بدون شك ــ من أظلم فترات تاريخنا ..

ان المجتمع يتغير ، وتغيره ناجم عن تطبيقات علم الانسان في المجتمع ، وعلم الانسان في المجتمع خاضع لتجارب العلماء الفردية ، وتجارب العلماء الفردية خاضعة لامزجة العلماء ومصادفاتهم وتدخلات امور جد عديدة !

فحتى علمنا الارادي الاكيد ، يصبح تابعا للمصادفة التي تتدخل بصورة قلابة ، وبعيدة عن ان تكون تنفيذا لخطة تجرى عليها اوضاع الاشياء وقوانينها ..

وان التدليل (العلمي) ! على لا طبقية المجتمعات القادمة، لا يحتاج من البراهين الناقدة الا القول بحرية الانسان ...

فاذا قالوا معنا بحرية الانسان : هذا الخالق الذي امكنه ان يدبر في كوكبه وسيلة عيشه ، اصبح قولهم متناقضا ازاء فكرتهم الاساسية التي هي أثبات ضرورة ميتافيزيقية خارجة على أرادة الانسان الراهن،والذي يكشف فيكل لحظة الاشياء .. فاذا قالوا بعبودية الانسان،يصبح قولهم متناقضا مع الواقع الانساني الراهن ، والذي يكشف في كل لحظة عن الحرية التي (بلى) بها البشر ، والتي يحملها كل فرد كالعبء الذي هو مسئولية ضخمة قاهرة ، نافذة في كل فعل ورغبة واشارة !..

***

التاريخ والزمان الوجودي

ان معنى المفارقة عند (هايدجر) هو ان الانسان ليس كائنا مغلوقا على ذاته ، بل هو حركة دائبة نحو العالم والاخرين .. ولذلك فهو الموجود الوحيد الذي يمكنه ان يحقق (التعالى) بحسبانه شروعا لتحقيق الامكانية الوجودية في المستقبل ..

أن التاريخ هو حكاية مواجهة المصادفات، والمواقف التي تحدث في زمان .. وهذه المواجهة المستمرة ، تحدد زمان الموقف في الحاضر .. الذي هو الزمن الوحيد المملوك ... على عكس فكرة (هايدجر) الذي يؤخر الحاضر بعد الماضي

---

(٣٩) انه ليغير من الامر كثيرا ان نذكر بمحاولات (النازية)و(السوفييت) الناجحة في تغيير التاريخ بالنسبة للامتين الجرمانية والروسية ، وخاصة في أذهان الشبيبة الناشئة ، فالعالم عند الجرمان هو ارتقاء العنصر الاري، اما العالم عند السوفييت فهو رقي البروليتاريا ، وواجب ان نذكر بنجاح هذه المحاولات التي يحققها مؤرخون يتعمدون اثقال الحقيقة الماضية بما لا تستطيع حمله ، اي باضافة الخط القصدي للمسار التاريخي ..»

والمستقبل (٤٠) ... ان الحاضر هو تكييف المستقبل ، والماضي معا ، على اساس انه الزمن الذي تتحدد فيه الحرية ..

ولكل مواجهة فردة ، سبل عديدة للخلاص ، غير ان التقرير متروك لحرية الانسان ، الذي يختار قدره الخاص . ان الانسان يتخير اسلوبه كموجود في العالم ، وهذه الحرية ليست حرية الملك ، بل هي حرية الاختيار ذاتها ، (وهذا النص الذي يبدو مقلقا في البداية ، وباعثا على الشك ، هو حسنة لهذا المذهب الذي لا يدعو الى الامتثال بقدر ما يدعو الى العكس) والا وقعت الفلسفة في التحديدات التي تخطط للسلوك ، وتسقط الفكرة وتدنيها من حتمية النص القانوني الصارخة ..

ان الكوجيتو الديكارتي الذي كان كل فضله ان اكتشف الذات ، يجدهنا منفذا جديدا وهو اكتشاف الاخرين عبر اكتشاف الذات ، وهذا المنعطف الباهر ، الذي اخر تقدم المثالية ، يوضح الانفلاق الذي تم بين النظرة المثالية للاخر ، والنظرة الوجودية (عندما نقول الوجودية فلسنا نعني سوى الوجودية الملحدة ، ووجودية ميرلوبونتي ، والتي لا تصدر ، بعكس الوجوديات الاخرى ـ عن مواقف مثالية)

ان حياتنا هي مشاريع وجود ، وهي مقذوفة ابدا ـ في ـ المستقبل ـ من خلال اللحظة الحاضرة الحاسمة ... وهذه الاختيارات توضح مقدار الحرية الممنوحة للفرد ، وبالتالي مقدار مسئوليته .. فلا يمكنه من ثم ان يتراجع الى الماضي كي يقيّم مستقبله (كما يفترض هايدجر) ولا يمكنه كذلك ان يتألم او يستنكف من ماضيه ، فلقد كان حرا عندما اختاره .. ولم يفرض عليه دين او معتقد ... ذلك القرار الذي اتخذه ازاء موقف ما .. (من هنا ارتباط الاخلاق بالحرية)

ولذلك تنشأ لحظة جديدة تنضاف الى مجموع اللحظات المكونة للماضي (التاريخ) ولكن .. هل يصبح التاريخ مجرد سرد ميت لحكايات ماضية ؟!

أبدا ... ما دام الانسان لا يستطيع ان يحدد ، كما تحدد الساعة الآلية (بغباء وجفاف) مقدار اللحظة والزمان ... انه يظل ابدا هذا السيال العجيب من ديمومة اللحظات ... ولذلك يضحي الارتداد الى الماضي ارتدادا الى التاريخ .. لا لتقييم لحظة جديدة ، بل لمجرد الاغتناء منه ، والامتلاء من فيضه ..

مسئولية الانسان تحدد التاريخ ، والانسان مسئول عن ذاته والاخرين ، وهو في اختياره لذاته ، يختار ضمنا للاخرين ، ولذلك فالتاريخ الفردي يرتبط اساسا بالتاريخ العام ، ويصبح الزاما للكون ..

التاريخ هو زمان مفتوح لكل بطولة وكل خيانة .. لكل فعل ، وعلى الانسان « ان يصنع مصيرا بكرا ينتظره (٤١) .. ووعى الانسان لمقدار ارتباط مصيره بفعله ، اي بارادته ، يوقعه في الاحساس بالهجر .. الاحساس بالتوحد ... بأننا متروكون لاقدارنا .. ! اننا آلهة هذا العالم !. هذا المصير هو الذي يخلق الهلع لفرط هذه الحرية المعطاة للانسان ... « نحن نعرف ان اقل حركة تصدر عنا ستعين على صوغ التاريخ ، وان اشد ارائنا شخصية ستساهم في تكوين هذا الفكر الموضوعي الذي سيطلق عليه المؤرخ عبارة (الفكر العالم لسنة ١٩٤٥) .. » (٤٢)

ان الكشف (الكانتي) لعلاقة الذات بالاشياء ، هو كشف يمنح مثاليته النقدية اهميتها ، غير انه يوقعها في مجردين: الشيء في ذاته .. والمعرفة القديمة التي تعيد صوغ سؤالها المعجز محرفا : اهو الانسان من يخلق (صورة) العالم ؟! « ان الوجود المعين هو كون الموجود مفتوح النافذة على الكون ، ولكنه مضاء من الداخل ، وهذا هو معنى (الانفتاح) ، ولذلك يشعر الانسان بنفسه ويتنبه لوجوده من طريق احساسه فجأة بأنه موجود هنا وبأنه شيء خيالي منعزل ، ولكنه سرعان ما ينكشف له أمر نفسه بفضل قدرته على الوصول الى اقصى حدود نفسه وبفضل مجهود يجلى له الحرية الموجودة فيه والملازمة له ، فالانسان متقدم على نفسه دائما وهو يقف امام نفسه (٤٣)

ان التاريخ هو مقدار الحرية التي يتحقق بها الفعل الانساني في الزمان .. ولذلك ترفض الوجودية كل فكرة مسبقة له ، طالما الارادة البشرية هي التي تصنع التاريخ .. فليس هو الانتصار الحتمي لطبقة العمال ، وليس هو فكرة الخلاص .. لانه ليس الا لحظة معروضة للامتلاء ، وهي طواعية وامتثال للافعال المصحوبة بحرية الانسان ...

التتمة في العدد القادم

القاهرة — **محي الدين محمد**

***

(٤٠) يراجع ص ١٠٣ (الفلسفة الوجودية) للدكتور زكريا ابراهيم .

(٤١) الوجودية فلسفة انسانية (سارتر) ص ٢٦

(٤٢) تأميم الادب (سارتر) ترجمة الدكتور توفيق شحاتة (الكاتب المصري) مجلد ١ عدد ٣ ديسمبر ١٩٤٥ ص ٣٣٩

(٤٣) الوجودية (ديديه أنزيو) الكاتب المصري

قريبا

الاشتراكيون العرب

تأليف الدكتور

كلوفيس مقصود

منشورات دار الآداب